الفصل الخامس عشر:

فلسطين بين الإخشيديين والفاطميين، والقرامطة والسلاجقة

عبد القادر ياسين

خلال أيام الطولونيين، نظَّم صالح بن مدَّرِّك (الطائي)، سنة ٨٩٨م، عصيانًا على السطة، وهاجم قوافل الحج، واستولى على أموالها. ولم ينظر بنو الجراح بعين الرضا إلى الحكم الفاطمي، الذي هدد مصالحهم، فأخذوا يناوئونه. وكان بنوا الجرَّاح قد برزوا في جنوب بلاد الشام، غداة أفول نجم الحمدانيين في شمالها، بعد موت سيف الدولة الحمداني (٩٦٧م). وأفضى تناحر القبائل، وإذكاء القوى المجاورة (العباسيين والفاطميين، والبيزنطيين، والقرامطة) للصراع، إلى تدهور أحوال بلاد الشام، الاقتصادية والاجتماعية. وقد اتخذ الطولونيون، ومن بعدهم الإخشيديون، فالفاطميون، من مصر مقرًا لحكمهم، فيما كانوا يتولون ولاية الشام، أيضًا[1].

على مدى نحو مائة وأربعين سنة (٩٣٥ - ١٠٧٢م) ظلت فلسطين، ككرة، تتقاذفها أقدام الإخشيديين، والفاطميين، والقرامطة، والعباسيين.

١ - الإخشيديون:

مدَّت الدولة الإخشيدية سلطانها على مصر والشام، لنحو أربعة عقود متَّصلة (٩٣٥ - ٩٦٩م). فقد تولى الإخشيد محمد بن طغج أمر مصر والشام، سنة ٩٣٥م، بعد أن هزم محمد بن رائق، الوالي العباسي. لكن ابن رائق عاد، بعد خمس سنين، واستولى على الشام، وحين توجه لغزو مصر، في السنة نفسها، تصالح مع حاكمها الإخشيدي، القائم بأمر الله، الذي أعاد تنظيم صفوف قواته، وهزم ابن رائق، في سيناء، ثم أرسل الإخشيد شقيقه، أبا نصر بن طغج، ليلاحق ابن رائق في بلاد الشام، على أن الأخير هزم أبا نصر، وقتله. فاضطر الإخشيد إلى عقد صلح جديد مع ابن رائق، على أن تكون فلسطين للإخشيد، مقابل أتاوة يدفعها لابن رائق[٢].

ولما قُتِلَ الأخير، بعد سنتين، احتَّل الأخشيد دمشق. وبعد أربع سنوات توفى الأخشيد، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور (٩٤٦ - ٩٦٠م). وحين احتل سيف الدولة الحمداني دمشق، خرج أنوجور من القاهرة، لملاقاته، فهزم سيف الدولة، في الرملة، وعادت دمشق للإخشيديين. وقويت شوكة كافور الإخشيدي، في ولاية علي بن الإخشيد، الذي خلف أنوجور. حتى أن كافور خلف عليًا في الحكم، لمدة سنتين وأربعة أشهر. وقد خلفه في مصر أحمد بن علي بن الإخشيد (٩٦٨م). وفي السنة التالية أخذ الجند المغاربة يتدفقون على مصر، تحت إمرة جوهر الصقلّي، القائد العسكري للمعز لدين الله لفاطمي، فانقرضت الدولة الأخشيدية[٣].

٢ - الدولة الفاطمية:

حين اعترى الوهن الدولة العباسية، انعكس ذلك على الولايات التابعة لها، وبضمنها الشام. وكثمرة للضرورة، السياسية والحربية، يمم الفاطميون وجههم شطر بلاد الشام.

لم يجد جعفر بن فلاح، قائد الحملة الفاطمية على بلاد الشام، أيام المعز لدين الله، صعوبة كبيرة في إلحاق الهزيمة بعامل الإخشيديين على فلسطين، في معركة قرب الرملة (٩٦٩م). وتوجه ابن فلاح، بعد ذلك، إلى طبريَّة - عاصمة جند الأردن - فدخلها صلحًا. ومن هناك تابع مسيرته إلى دمشق، بعد أن كان وجهاؤها قد جاؤوا جعفر، في طبرية، لعقد صلح معه، فأساء معاملتهم، الأمر الذي دعاهم إلى المقاومة، وإن بدون جدوى. ووقعت دمشق في يد ابن فلاح، وأقيمت الخطبة فيها للمعز، في العام نفسه[٤].

حين مدَّت الدولة الفاطمية نفوذها من مصر إلى بلاد الشام (٩٦٩م)، فإن هذا النفوذ افتقر إلى الاستقرار، بسبب القبائل العربية بالداخل، والحركات الاستقلالية (الحمدانيين، وبنو مرداس في حلب، وبنو الجرَّاح الطائيين بفلسطين)، ومن الخارج كان ثمة القرامطة، والدولة البيزنطية. ناهيك عن التعارض المذهبي بين الفاطميين (الشيعة)، وأهل الشام (السُنَّة)، ما عرَّض حكم الفاطميين للشام إلى هبَّات وحالات تمرُّد عِدة[٥].

أي أن العوامل التي سهَّلت على الفاطميين فتح بلاد لاشام، هي نفسها التي حالت دون استقرار حكمهم فيها، حتى أن الامبراطور البيزنطي، تسمسكس توغَّل عميقًا في بلاد الشام، وصولاً إلى بيسان

بعد دمشق (٩٧٥م). لكن البيزنطيين انسحبوا، إثر اتفاق مع لفاطميين، فيما تقدَّم الأخيرون إلى دمشق، للقضاء على ألبتكين، الذي استعان بالقرامطة، فخفَّ لنجدته الأعصم من الأحساء، ودحرا جيش جوهر الصقلي، وطارداه حتى عسقلان، وحاصراه، وفرضا عليه صلحًا، سلَّم بموجبه لألبتكين بحكم الشام، لكن الخليفة الفاطمي الجديد، العزيز بالله (٩٧٥ - ٩٩٦م) رفض شروط الصلح، وقاد بنفسه جيشًا ضد تحالف القرامطة والقبائل الترك، والعسكر الترك، وألحق بهم هزيمة، ولكنها لم تكن حاسمة، ما دفع العزيز بالله إلى استمالة بني الجرَّاح، والعفو عن ألبتكين، ودفع جعالة سنوية للأعصم[٦].

٣ - القرامطة:

ألحق القرامطة - بزعامة الحسن الأعصم - الهزيمة بجيش جعفر بن فلاح، سنة ٩٧١م، وقُتِلَ الأخير في هذه المعركة، ودخل الأعصم فلسطين، وعاصمتها الرملة، قبل أن يتركها لوال من رجاله، ومعه مفرج بن دغفل بن الجرَّاح (الطائي)، وبعض الأخشيديين، والكافوريين. وفتح الأعصم يافا، وحين اتجه إلى مصر، هزمه جوهر الصقلّي، سنة ٩٧١م. وإن رضخ حسَّان لإغراء ذهب المعز، وتخلى عن الأعصم، وتعاون مع الفاطميين ضده، ودحر الحليفان الأعصم عن بلاد الشام[٧]. ما مكَّن الصقلّي من استرداد فلسطين، وإن عاد القرامطة واستردوها، في العام التالي، وظل الطرفان أسرى حروب متتالية، يتناوبان النصر والهزيمة، والاحتلال والانسحاب، إلى أن تمكَّن جيشٌ فاطمي، بقيادة محمود بن جعفر بن فلاح، من استرداد دمشق من القرامطة[٨].

في العام نفسه نقل التركي، أفتكين، ولاءه في فلسطين، من الفاطميين إلى العباسيين. لكنه، بعد قتال ضار مع الفاطميين، تنازل لهم أفتكين عن ما بين غزة ومصر. وانتظر الفاطميون سنتين أُخريين قبل أن يكروا على أفتكين، ويستعيدوا فلسطين والشام، إلى أن حكم آل الجرَّاح فلسطين (٩٧٠ - ١١٠٣م)، وتذبذبت علاقة آل الجرَّاح بالفاطميين، فيما تحالفوا مع الحمدانيين في حلب[٩].

في سنة ٩٨٨م، تمرَّد المفرج على حكم الفاطميين، متحالفًا مع سعد الدولة الحمداني. ومع موت المفرج (١٠١٣م)، وتولى الحاكم بأمر الله الخلافة الفاطمية بمصر (١٠٢١م)، أوفد الأخير جيشًا ألحق الهزيمة بحسَّان بابن المفرج، عند الرملة، لكن الأخير عاد واحتل الرملة، مع موت الحاكم بأمر الله (١٠٢٤م). وإن هزم الفاطميون إبن المفرج، لاحقًا، في طبرية
(١٠٢٩م). واندلع الصراع بين الأمراء على فلسطين والشام، حتى أن بعضهم استعان بالروم البيزنطيين على خصومه[١٠].

٤ - السلاجقة:

أغرى انحسار النفوذ السياسي للفاطميين، في شمال بلاد الشام وجنوبها، السلاجقة - بعد أن كانوا استولوا على بغداد - لمد سلطانهم إلى الشام، فتمكَّنوا من الاستيلاء على الرملة، والقدس، ودمشق. لكن الفاطميين قاسموهم السلطة في الشام، في أواخر القرن الخامس الهجري. كما تعرَّضت بلاد الشام، في تلك الحقبة، إلى تهديد البيزنطيين لحدودها الشمالية[١١]. ففي ١٠٧٢م، اجتاح التركمان السلاجقة بلاد الشام، لكن

الخلاف سرعان ما دبَّ بين نوّاب السلاجقة. ثم حدث أن فرَّ القائد العسكري التركي، البسياسيري، من بغداد (١٠٧٥م) من وجه السلاجقة، ووصلت جماعة صغيرة من الأتراك إلى بلاد الشام، وغدت طرفًا في الصراعات الداخلية، التي احتدمت هناك. ما اضطر والي الشام الفاطمي، بدر الجمَّالي، إلى الاستعانة بالجماعات الغزِّية (الخوارزمية)، لإخضاع القبائل العربية. لكن الجمالي سرعان ما تحالف مع هذه القبائل، منقلبًا على الجماعات الغزِّية، وهزمهم (١٠٧١م)، لكن تلك الجماعات استولت على الداخل، تاركة الساحل للفاطميين، الذين تشبَّثوا به، لأهميته الاقتصادية في مجال التجارة مع بيزنطة. ثم استولى الغزّيون على عكا، في السنة التالية. وحين توجَّهوا إلى مصر حاقت بهم الهزيمة. ما أغرى الفلسطينيين على الثورة ضد الغزِّيين، فقمعهم الأخيرون، وعاثوا تخريبًا في القدس(١٠٧٥م) [١٢].

ما دفع الخليفة الفاطمي إلى تسيير حملة عسكرية، لاسترداد بلاد الشام، سنة ١١٩٩م، فدخل قائد الحملة، الفضل بن بدر الجمَّالي، القدس، بعد أن منح أهلها الأمان، الذي طلبوه، وعاد الجمَّالي إلى مصر، بعد أن ولَّى افتخار الدولة على القدس. وإجمالاً، فإنه يمكن اعتبار مقتل تاج الدولة تتش، في القتال مع أخيه، السلطان بركيا روق (١٠٩٥م)، بدايةً فعلية لنهاية نفوذ السلاجقة في بلاد الشام، مما مهَّد لحملات الفرنجة[١٣].

حين استفحل أمر أطسيز، أرسل السلطان ملكشاه

(١٠٩٢م)، أخاه تتش، لإخضاع أطسيز، الذي قُتِلَ، وانتهز الفاطميون الفرصة فوسّعوا سلطانهم، ولم يلبثوا أن استولوا على القدس(١٠٩٦م)، إلى أن دخلها الفرنجة، بعد ثلاث سنوات[١٤].

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل الخامس عشر

(١) إلياس شوفاني، **الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩**، ط٢، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨، ص ١٨٤ - ١٨٥.
- د. خاشع المعاضيدي، **الحياة السياسية في الشام خلال العصر الفاطمي**، بغداد، دار الحرية، ١٩٧٦، ص١٩.
(٢) **الموسوعة الفسطينية**، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠(انظر: نبيه عاقل، فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ص٢٨٥ - ٢٨٦).
(٣) **المصدر نفسه**، ص٢٨٦.
(٤) **شوفاني**، مصدر سبق ذكره، ص١٨٣.
(٥) **المصدر نفسه**، ص١٨٥ - ١٨٦.
- عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٨٨ - ٢٨٩.
(٦) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٥.
- المعاضيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٧.
(٧) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٥ - ١٨٦.
(٨) **المصدر نفسه**، ص١٨٦.
(٩) **المصدر نفسه**، ص١٨٧.
(١٠) **المصدر نفسه**، ص١٨٣ - ١٨٤.
(١١) المعاضيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٧، ٨.
(١٢) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٧.
(١٣) المعاضيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٩ - ١٠٧.
(١٤) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ١٨٧.

* * *